صوائت العربية بين الدرسيْن الصوتيّيْن القديم والحديث
مراجعات صوتيّة

Arabic Vowels: between ancient and Modern Phonetics: Phonetic Revisions

عبد الحميد زاهيد[1] ، عبد العزيز أيت بها[2]

الملخص

ظهرت اللسانيات في القرن العشرين، وتطورت قُدمًا في القرن الواحد والعشرين، لتُغير طرائق التفكير ومناهج البحث في اللغة الإنسانية، وتفتح آفاقًا رحبة للإنسان لفهم أفضل، ومعرفة وأعمق بلغته. ورغم التطور الحاصل في مجال الصوتيات التجريبيّة، إلا أنّه ثمّة أنظار وتصورات سطّرها القدماء مازالت تثبت صوابهاودقّتها العلميْن؛ كما أنّه ثمّة آراء وتفسيرات تستدعي المراجعة وإعادة النظر. من هذا المنطلق يهدف هذا البحث إلى الكشف عن الأنظار الرائدة لدى علماء الأصوات العرب القدماء،ومراجعة الأفكار السائدة في بحث موضوع "حركات العربية"، والوقوف على مكامن القوة والضعف في تراثهم الصوتي في هذا الموضوع، وقد اعتمدنا فيه على المنهج المقارن الذي يقوم بمقارنة الجهود الصوتية لدى القدماء مع معطيات الدرس الصوتيّ الحديث. وقد كان من أبرز نتائج البحث بيان ريادة القدماء في تحديد صوائت العربية تحديدًا دقيقًا، والفصل بين الصوامت والصوائت، والفصل بين الصوائت الطويلة والقصيرة؛ بعدّها فونيمات وألفونات، وتحديد طبيعة العلاقة بينهما، بالإضافة إلى أنظار رائدة في تأمل الأعضاء المنتجة للحركات وخصائصها الصوتية،وكذلك تبيان مدى تأثرهم بالمستوى الكتابي في تفسيراتهم الصوتية.

الكلمات المفتاحية: حركات العربية، علم الأصوات القديم والحديث، الفونيم، الألفون، المدّة الذاتية، المدة الموضوعية، الأعضاء المنتجة للحركات

DOI: 10.15849/ZJJHSS.220508.06

[1] جامعة قطر – قطر ، [2] جامعة زايد – الإمارات العربية المتحدة

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

Abstract

Linguistics appeared in the twentieth century and has developed further in the twenty-first century in order to improve the thinking and research methods in human language and open up broad horizons for humans to better understand and know deeply his or her language. Despite the development in the field of experimental phonetics, there are the views and perceptions of the precursors that are still proven scientifically correct and accurate as much as opinions and interpretations that require a review and reconsideration. Based on this,the present research aims to reveal the pioneering views of the ancient Arab scientists, review the prevailing ideas in the study of the subject of "The Arabic Vowels" and identify the strengths and weaknesses of their linguistic heritage on this subject. We have relied in this study on the comparative method which compares the ancient's achievements in phonetics with the findings of the modern phonetics. Among the most prominent results of this research was the affirmation of the ancients' leadership in precisely defining the vowels of Arabic, separating between not only consonants and vowels but between long and short vowels as phonemes and allophones as well and determining the nature of the relationship between them, in addition to a pioneering view of the vowels producing organs and their vocal characteristics, as well as the extent to which these predecessors are affected by the written form in their phonetic interpretations.

Key Words: Arabic Vowels, Ancient &Modern Phonetics, Phonemes, Allophones, Intrinsic Duration, Co-intrinsic Duration, Vocal Organs.

المقدمة

لم يكن الدرس الصوتي العربي الحديث البداية الأولى للتأمل في أصوات اللغة العربية ولهجاتها، بل سبقته أنظار وتأملات تهدف إلى استكشاف نظام أصوات اللغة العربية وفِقْه سَنَن اشتغالها، وتفكيك بنيتها ومستوياتها المختلفة والمتشابكة، ولم يكن هذا النظر في ذاته ولأجل ذاته، بل كان محكوما بمنظومة فكرية متكاملة نواتها تعلم "الواجب" (القرآن الكريم)، وتعلم ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب (اللغة العربية).

وكان من بين هذه الأنظار والتأملات، جهود اللغويين القدماء في دراسة "حركات العربية" و"أصوات المد" "Vowels"، فقد فصَلت هذه الجهود بين الصوائت "Vowels" من جهة، والصوامت "Consonants" من جهة أخرى، كما تميزت هذه الجهود بالإدراك التام، والوعي الرائد بكثير من مميزات الحركات وأصوات المدّ من حيث الخصائص والسمات والوظائف.

يعتمد هذا البحث على المنهج المقارن، ويهدف إلى الوقوف عند جهود علماء الأصوات القدماء في دراسة صوائت العربية، وبيان ملامحها ومواطن قوتها، ومقارنتها بمخرجات البحث الصوتي الحديث، مركزا على جوانب السبق التاريخي في الرصد والتحليل، ومُنبِّها على جوانبَ، هي بحاجة إلى إعادة النظر فيها، وفقَ معطيات الدرس الصوتي الحديث.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

ويندرج هذا البحث في إطار المراجعات الصوتية التي نسعى من خلالها إلى تبيان أهمية التراث الصوتي الإسلامي العربي في بناء المعرفة الصوتية العالمية، ووضع اليد على مكامن السبق التاريخي في التنظير والتطبيق، دون إغفال مشروع إعادة كتابة هذا التراث على ضوء ما استجد في عصرنا الحالي.

ولتحقيق هدف البحث، قسمناه إلى ستة محاور أساسية هي: تعريف الحركات وحروف المد، والأعضاء المنتجة للحركات، والخصائص الصوتية للحركات، والمدة الذاتية والموضوعية للحركات، والعلاقة بين الحركات وحروف المد، والألفونات الحركية.

1. الحركات وحروف المد

1-1 الحركات

يعد مصطلح "الحركات" من المصطلحات الصوتية في الدرس الصوتي العربي الحديث التي تستخدم للدلالة على مفهوم المصطلح الأجنبي "Vowels"، بيد أن الدرس الصوتي القديم قد قصر مصطلح الحركات على الصوائت القصيرة في مقابل مصطلح "حروف المد" التي تدل على الصوائت الطويلة، بالإضافة إلى مصطلحات أخرى نعرض لها في حينها.

لم يهتم علماء العربية قديما بالحركات اهتمامهم بحروف المد؛ ولعل سبب ذلك راجع للتمثيل الخطي لحروف المد، في مقابل الحركات، مما جعلها تابعة للحروف غير مستقلة عنها[1]، يقول ابن جني (ت 392هـ) مبيّنا سبب تسمية الحركات بالحركات: "وإنما سميت هذه الأصوات الناقصة حركات، لأنها تُقلق الحرف الذي تقترن به، وتجتذبه نحو الحروف التي هي أبعاضها"[2]. يبين ابن جني هنا أن هذه الحركات أصوات، وإن كان لا يؤمن باستقلالها الصوتي، لكونها ناقصة، ويتحقق كمالها باقترانها بالحروف؛ أما سبب تسميتها بالحركات؛ فلأنّها تحرّك الحرف وتجذبه إلى الحروف التي هي أبعاضها، ومقصوده هنا الحركات الطويلة التي تنتج عن مد الحركات القصيرة عند اقترانها بصامت من الصوامت.

ومن بين الإشارات القليلة التي ظفرنا بها، والتي تعتبر الحركة صوتا مثله مثل الحرف، قول الصحاري العوتبي (ت 511هـ): "والحرف والحركة أكثر من السكون؛ لأن **الحركة ترجيع** والساكن ميت...**والحركة أيضًا حرف**، إلا أنها أقل من الحرف؛ لأن الحرف مستقل بنفسه، والحركة لا تقوم بذاتها حتى تكون مع الحرف، والحركة هي التي تبين الحرف"[3]، في هذا النص يصرح الصحاري بأن الحركة ترجيع أي أنها تصويت، ويعدها حرفا كذلك، لكنه ما لبث أن عاد إلى تقرير الفكرة السائدة عند أغلب اللغويين القدماء وهي أن الحركة لا تقوم بذاتها مثل الحرف، بل هي تابعة له، وتقوم بتبيينه.

---

[1] والنصوص الدالة على عدم استقلال الحركة بنفسها، وتبعيتها للحرف كثيرة، منها مثلا قول الصحاري: "لأنك تجد الحرف ولا حركة، **ولا تجد الحركة إلا في حرف**"، ينظر: الصحاري، سلمة بن مسلم العوتبي (ت. 511هـ): الإبانة في اللغة العربية، تحقيق عبد الكريم خليفة/ نصرت عبد الرحمن/ صلاح جرار/ محمد حسن عواد/ جاسر أبو صفية، ط. 1، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1999م: 86.

[2] ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت. 392هـ) :سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي، ط 2، دار القلم، دمشق، 1993: 1/ 27.

[3] الصحاري: المرجع نفسه؛ 86.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

وإذا حللنا توجههم بخصوص عدم استقلال الحركة عن الصوامت من المنظور الصوتي، وجدنا رأيهم بعيدا عن الصواب؛ وذلك أن الصوامت والصوائت تعتبر كلها فونيمات مستقلة تقوم بذواتها على المستوى الصوتي والصواتي على حد سواء، وهذا يدفعنا إلى الاعتقاد أن النظرة البصرية في التحليل كانت حاضرة في معظم الظواهر الصوتية في تراثنا الصوتي القديم.

ويعرف السهيلي (ت. 581هـ) الحركة تعريفا نطقيا بقوله: "الحركة عبارة عن تحريك العضو الذي هو الشفتان عند النطق بالصوت الذي هو الحرف، والحرف عبارة عن جزء من الصوت... فإذا ثبت ذلك فالضمة عبارة عن تحريك الشفتين بالضم عند النطق بالحرف، فيحدث عن ذلك صوت خفي مقارن للحرف، وإن امتد كان واوًا، وإن قصر كان ضمة... والفتحة عبارة عن فتح الشفتين عند النطق بالحرف وحدوث الصوت الخفي الذي يسمى فتحة أو نصبة، وكذلك القول في الكسرة والياء، من أن إحداهما بعض الأخرى، وحدوثهما عند تحريك العضو بالكسر مع مقارنة الحرف"[1]؛ ينص كلام السهيلي على مجموعة من المعطيات الصوتية التي تحتاج إلى تدقيقات صوتية، أولاها: إشارته الموفقة إلى دور الشفتين في إنتاج الحركات القصيرة والطويلة على حد سواء؛ فالشفتان عضوان أساسيان من الأعضاء المنتجة للحركات كما يوضح علم الأصوات الحديث، فعند استدارتهما، ننتج ما يسمى بالصوائت المستديرة (RoundedVowels) كما في الضمة، وعند انفراجها ننتج ما يسمى بالصوائت غير المستديرة (UnroundedVowels) كما في الفتحة والكسرة. وثانيها: تقسيمه للحرف المتحرك إلى قسمين؛ القسم الأول الحرف (والحرف عبارة عن جزء من الصوت)، والقسم الثاني الحركة (الصوت الخفي الذي يحدث مقارنا للحرف)، وهو صوت الحركة، وإذا كنا نعتبر ما ذهب إليه السهيلي من كون الحركة صوتا حكما يحالفه الصواب، فلا نعتقد أن وصفه بالخفي سليم من المنظور الصوتي؛ فالصوائت من المنظور الصوتي تحتل الصدارة في سلم الجهارة والوضوح السمعي (Sonority Scale)، فالحركات من المنظور النطقي أصوات خالية من أي احتكاك أو انسداد؛ مما جعلها تتصف بالجهارة والوضوح، وليس بالخفوت كما ذهب إليه السهيلي.

2-1 حروف المد

جاء في لسان العرب: "المد: الجذب والمطل...، ومدّ الحرف يمُدّه مدا طوَّلَه"[2]، ويعرفه البناء (ت. 721هـ) بقوله: "وحدُّ المد مطلقا طول زمان صوت الحرف، فليس بحرف ولا حركة ولا سكون، بل هو شكل دال على صورة غيره، كالغنة في الأغن فهو صفة للحرف"[3]. يتضح من التعريف اللغوي والاصطلاحي عند ابن البناء أن المد إطالة في زمن الصوائت؛ ومما يثير الانتباه في تعريف ابن البناء اعتباره المد صفة للصوت، وليس مكونا فزيائيا من مكوناته، فالمد عنده مثل الغنة والتفخيم وباقي الصفات التي تجيب عن كيفية إنتاج الأصوات. ونعتبر أن هذا الرأي غير محالف للصواب، فالمد ليس مرتبطا بسؤال "الكيف" المرتبط بالصفات، ولا بسؤال

[1] السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن (ت. 581هـ): نتائج الفكر في النحو، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود/ علي محمد معوض، ط. 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1992 : 66- 67.

[2] ابن منظور، أبو الفضل (ت. 711هـ): لسان العرب، ط. 3، دار صادر – بيروت، 1414 هـ: مادة "مدد".

[3] البناء، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي (1117هـ): إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: وضع حواشيه أنس مهرة، ط1، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، 1998: 53.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

"الأين" المرتبط بالمخارج؛ وإنما هو مرتبط ب"الماهية" التي المكونات الفزيائية للصوت عموما، وهي التردد الأساسي (Frequency)، والشدة (Intensity)، والمدة (Duration). فأصوات المد هي أصوات مكونة من المكونات الفزيائية السالفة الذكر، وليست صفات، ولا يميزها عن نظيراتها الحركات القصيرة سوى مكون المدة الزمنية، ومن هذا المنطلق سميت بحروف المد.

وقد أطلق علماء العربية على هذه الحروف الثلاثة، كثيرا من المصطلحات التي يرجع كل واحد منها إلى خاصية من خصائصها النطقية والفزيائية، ومن أشهر هذه المصطلحات "حروف المد واللين"؛ ويشرح المهداوي (ت. 440هـ) سبب هذه التسمية بقوله: "سميت بذلك **لامتداد الصوت** بهن، **لخروجهن في اللفظ بلين** من غير كلفة على اللسان واللهوات"،[1] ويقول البغدادي (ت. 541هـ): "وهذه الحروف الثلاثة إنما سميت حروف المد واللين لأن الصوت **يمتد بها ويلين**، وذلك في مخرجها حين يسمع السامع مدّها، ولا يوجد ذلك في غيرها من الحروف(....) **وسميت 'حروف اللين' لما بيناه من اتساع مخرجها وامتناع حصرها**، وذلك أنها ضعفت لامتداد الصوت بها، وقال قوم: سميت "حروف اللين" لضعفها، وكثرة انقلابها، وتغيرها، واطراد اعتلالها. وقال آخرون: سميت لينة لأن الحركات مأخوذة منها".[2]

فَعِلّةُ وصفها بالمد، هو إمكانية مد الصوت بها، أما وصفها باللين، فسببه اتساع المخرج، وهذا جعل بعضهم يفصل بين خاصيتي المد واللين في هذه الأصوات، وينتج عن ذلك التمييز بين حالتين مختلفتين: حالة المد وحالة اللين، فيكون اللين كما يقول ابن الطحان (ت. 561هـ): "عبارة عما يجري من الصوت في حرف المد ممزوجا بالمد طبيعة وارتباطا، لا ينفصل أحدهما في ذلك عن الآخر، وهو أجرى في الياء والواو إذا انفتح ما قبلها، كما أن المد أجرى فيهما إذا انكسر ما قبل الياء وانضم ما قبل الواو"،[3] ويضيف مكي بن أبي طالب(ت.437هـ): "حرفا اللين وهما: الواو الساكنة التي قبلها فتحة، والياء الساكنة التي قبلها فتحة، وإنما سميتا بذلك لأنهما يخرجان في لين، وقلة كلفة على اللسان. ولكنهما نقصتا عن مشابهة الألف لتغير حركة ما قبلهما عن جنسهما، فنقصتا المد الذي في الألف، وبقي فيهما اللين لسكونهما فسميتا بحرفي اللين"[4]، نستنتج من هذين النصين أن خاصية اللين موجودة في الياء والواو المفتوح ما قبلهما، كما أن المد أخص بالألف، والواو المسبوقة بضمة، والياء المسبوقة بكسر.

---

[1] المهداوي، أبو العباس أحمد بن عمار(440هـ): شرح الهداية، تحقيق حازم سعيد حيدر، مكتبة الرشد، الرياض، د.ت.: 79/1.

[2] البغدادي، أبو محمد عبد الله بن علي بن أحمد (ت. 541هـ): المبهج في القراءات الثمان وقراءة الأعمش وابن محيصن واختيار خلف واليزيدي، تحقيق ودراسة وفاء عبد الله قزمار، رسالة دكتوراه كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1405هـ 1985م: 305/1. وينظر كذلك: ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (ت. 833هـ): التمهيد في علم التجويد، غانم قدوري، دار الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط.1421،1 هـ/2000م: 102.

[3] ابن الطحان السماتي(ت. 561هـ): مرشد القارئ إلى تحقيق معالم المقارئ، تحقيق حاتم صالح الضامن، ط1، مكتبة الصحابة، الشارقة، 2007م:64.

[4] القيسي، مكي بن أبي طالب (ت.437هـ): الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها وتفسير معانيها وتعليلها وبيان الحركات التي تلزمها، تحقيق أحمد حسن فرحات، د.ط، دار عمار، عمان، الأردن، 1996م: 102.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

ورد في النصوص السابقة خلط صوتي واضح وذلك بوصف أن ما يميز اللين عن المد هو "اتساع المخرج" و"قلة الكلفة على اللسان". وهذا التبرير الصوتي لا يتماشى ومعطيات الدرس الصوتي الحديث الذي يعتبر أصوات المد (الصوائت الطويلة (الألف والواو والياء المسبوقات بحركة من جنسها)) أكثر اتساعا في المخرج من أصوات اللين (أنصاف الصوائت (الياء والواو المسبوقتين بالفتحة))؛ فمخرج الياء والواو (أنصاف الصوائت) أضيق من مخرج الصوائت الطويلة. أما ما ذهبوا إليه من قلة الكلفة على اللسان؛ فأمر لا تثبته التجارب الصوتية، بل إن اللسان يقوم بنفس الحركة التي يقوم بها في إنتاج الصوائت الطويلة وأنصاف الصوائت، الفرق الوحيد بينهما هو أن وضعية اللسان في أنصاف الصوائت تكون أقرب إلى الحنك الصلب فيضيق مخرج الصوت، فتكون أنصاف الحركات أكثر انغلاقا من الحركات الطويلة، وذلك نتيجة الحركة العامودية للسان التي تحدد صفة الانغلاق (ClosedVowels) وصفة الانفتاح (Open Vowels).

ومن ثم فبين الوصفين –على حد تعبير القدماء– علاقة عموم وخصوص بحيث: "يصدق اللين على حرف المد بخلاف العكس لأنه يلزم من وجود الأخص وجود الأعم ولا ينعكس."[1] ويوضح البناء (ت. 1117هـ) هذه العلاقة قائلا: "ويصدق اللين على حرف المد، فيقال حرف مد ولين، بخلاف العكس، فلا يوصف اللين بالمد على ما اصطلحوا عليه".[2]

لقد كان القدماء على صواب في الفصل بين خاصيتي المد واللين في هذه الحروف، وذلك لاختلاف أحوالها وطبائعها من جهة، واختلاف علة التسمية من جهة أخرى، "فأساس المد المدة الزمنية التي تستغرقها الأعضاء في إنتاج الصوت؛ فلما طالت مدتها الزمنية سميت بحرف المد، أما اللين فأساسه نطقي، أي أن الياء والواو الساكنتين المسبوقتين بفتحة تتغير وضعية اللسان في إنتاجهما مقارنة مع الياء والواو الساكنتين المسبوقتين بحركة من جنسهما".[3]ولكنهم جانبوا الصواب عندما افترضوا اللين في حرف المد، بناء على ما ادّعَوه من أن وجود الأخص "المد"، يستلزم وجود الأعم "اللين"؛ والسبب في ذلك أنه ليس "كل حرف مد حرف لين، وليس كل لين مدا، فحروف المد هي حركات خالصة، (...) أما حروف اللين (w–y) فإنها عبارة عن أنصاف الصوامت (Semi consonne)، تشكل حركة مركبة مع الفتحة (Diphtongue) (aw–ay)، فوضعية اللسان في حروف المد، ليست هي الوضعية نفسها في حروف اللين، فالمسافة التي تفصل اللسان عن الحنك في اللين أضيق منها في المد، فتتحول الواو والياء من حركات إلى أصوات احتكاكية، هذا بالإضافة إلى أن الواو المسبوقة بحركة من جنسها ليست هي الواو المسبوقة بالفتحة، فليس كل مد لينا وليس كل لين مدا، بل هما شيئان مختلفان".[4]

---

[1]النويري، أبو القاسم محمد بن محمد(857هـ): شرح طيبة النشر في القراءات العشر، تحقيق مجدي محمد سرور باسلوم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003: 375/1.

[2]البناء، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي (1117هـ):مرجع سابق، 53. وفي هذا يقول البغدادي متحدثا عن الواو والياء الساكنتان المفتوح ما قبلها: "واختلف الناس في تسميتهما إذا خرجا عن شبه الألف، فقال قوم: يجوز أن يسميا "حرفي مد ولين" قالوا: لأن المد يوجد فيهما في حالة من الأحوال وهو انكسار ما قبل الياء وانضمام ما قبل الواو. وقال آخرون: لا يجوز أن يسميا حرفي مد، ولكن يسميا (حرفي لين)، قالوا: والدليل على ذلك أن شرطي الشبه بالألف قد زالا، وهما الكسرة قبل الياء والضمة قبل الواو". مرجع سابق: 1/ 304.

[3]زاهيد، عبد الحميد: حركات العربية دراسة في التراث الصوتي العربي: سلسلة الصوت 4، ط1، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2005م: 41.

[4]زاهيد، عبد الحميد: المرجع نفسه: 43.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

وقد أدرك بعض القدماء أن لهذين الحرفين (الواو والياء) ثلاثة أحوال مختلفة في النظام الصوتي العربي، فهي تتراوح بين أن تكون حركات طويلة، أو أنصاف حركات، أو حروفا صامتة، يقول الفرغاني(ت. 579هـ): "لكل واحدة من الواو والياء ثلاثة أحوال: الأول منها أن تكون متحركة، فتكون مشابهة للحروف الصحيحة في الكمية والكيفية... والثاني أن تكون ساكنة سكونا مُصوّتا فتكون مشاكلة للألف في الامتداد... الثالث أن تكون ساكنة سكونا ساكنا ... يكون قبل الواو والياء فتحة تشبهان بها الألف من حيث أن ما قبلها لا يكون إلا مفتوحا... وحين إذن تسميان حرفي لين"[1]. وأما الألف فليس لها إلا حالة واحدة وهي أن تكون حركة طويلة.

وبالإضافة إلى مصطلحي المد واللين، فقد وصفت هذه الحركات الطويلة في الدرس الصوتي القديم بعدة مصطلحات، لكل واحدة منها علة وراءها، وقد جمع الشيرازي (ت. 565هـ) أغلبها في قوله: "وتسمى هذه الحروف أيضا **الذوائب**، وإنما سميت ذوائب لأنها تذوب وتلين وتمتد، وتسمى هذه الحروف أيضا **الهوائية**، لأنها تخرج في هواء الفم، وقد يقال لها أيضا **الهاوية**، لأنها تهوي في الفم، وليس لها أحياز من الفم تعتمد في خروجها عليها، وبعض النحويين يجعل الألف وحده هو الهاوي"[2]. وبالإضافة إلى هذه المصطلحات نجد مصطلحا آخر وهو الحروف **المصوتة**، وهو المصطلح المفضل عند الموسيقيين، و"إنما سميت بالمصوتة، لأن النطق بهن يُصَوِّت أكثر من تصويته بغيرهن، لاتساع مخارجهن وامتداد الصوت بهن"[3]، فمصطلح الحروف "الذوائب" يعود إلى خاصية اللين في المخرج، ومصطلح الهوائية والهاوية راجع لاتساع مخارجها، وخلوها من أي عائق، أما مصطلح المصوتة فعِلَّتُه ما تتصف به من جهارة ووضوح في السمع. أما قولهم إن الحركات ليس لها أحياز في المجرى الصوتي (الفم بتعبير القدماء)، فذلك ما لا تثبته الدراسات الصوتية الحديثة، فبعض الحركات يتقدم اللسان فيها إلى الأمام فيكون مخرجها أمامي (Front Vowel) كالكسرة والياء الطويلة مثلا، ومنها ما يرجع اللسان في نطقه إلى الخلف فيكون مخرجها خلفيا (Back Vowel) كما في الضمة والواو الطويلة.

2- الأعضاء المنتجة للحركات:

تعرض القدماء لمخارج الحركات والأعضاء المنتجة لها، وكانت لهم نظرات ثاقبة في هذا السياق، كما كانت لهم آراء مجانبة لما أقرّه علم الأصوات الحديث. ومن بين آرائهم السديدة التأكيد على وحدة المخرج بين الحركات القصيرة ونظيراتها الطويلة، فـ "الفتحة مخرجها من مخرج الألف، وكذلك الكسرة من مخرج الياء، والضمة من مخرج الواو"[4]، ومن ثم فلا فرق بين الحركات القصيرة والطويلة إلا من حيث المدة الزمنية، أما المخرج فواحد.

---

[1] الفرغاني، علي بن مسعود (ت. 579هـ): المستوفى في النحو، تحقيق محمد بدوي المفتون، د. ط. دار الثقافة العربية، 1987: 196- 197.

[2] الشيرازي، أبو عبد الله نصر بن علي بن محمد (565هـ): الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها، تحقيق عمر حمدان الكبيسي، رسالة دكتوراه كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1408هـ: 175/1. والظاهر أن تخصيص الألف وحده بصفة "الهاوي" لا يقتصر على بعض النحويين بل نجده عند بعض القراء أيضا، مثل المهداوي، أبو العباس أحمد بن عمار(440هـ) الذي يقول: "أما الهاوي فهو الألف اللينة، سميت بذلك لأنها تهوي في الفم فلا يعتمد اللسان على شيء منها." مرجع سابق: 79/1.

[3] القرطبي، عبد الوهاب بن محمد (ت. 461هـ): الموضح في التجويد، تحقيق غانم قدوري، ط 1، دار عمار، الأردن، 2000: 98.

[4] السيرافي النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، دراسة وتحقيق فائز عبد المنعم، ط. 1، دار الفكر، 1983: 586.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

ويعد الخليل بن أحمد (ت. 170هـ) أول من تعرض لمخارج الحركات، وذكر أن مخرجها الجوف، يقول ابن الجزري (ت. 833هـ) مؤكدا ذلك: "وتسمى الهوائية والجوفية، قال الخليل: وإنما نسبن إلى الجوف لأنه آخر انقطاع مخرجهن، قال مكي: وزاد غير الخليل معهن الهمزة لأن مخرجها من الصدر، وهو متصل بالجوف، قلت: الصواب اختصاص هذه الثلاثة بالجوف دون الهمزة، لأنهن أصوات لا يعتمدن على مكان حتى يتصلن بالهواء، بخلاف الهمزة".[1] ويشرح الأزهري(ت. 370هـ) هذا المخرج بشكل أوضح بقوله: "سميت جُوفا لأنها تخرج من الجَوف فلا تخرج من مدرجة، وهي في الهواء، فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف"[2]. فهذه الحركات في نظر الخليل ومن تبعه من اللغويين ليس لها مقطع أو مخرج في الحلق أو الفم أو الشفتين، لذلك نسبوها إلى الجوف، وجوف الإنسان بطنه كما في لسان العرب[3]. إن قول القدماء:إن هذه الحركات لا مخرج لها كلام مجانب للصواب، ولعل ما ذهب إليه الخوارزمي(ت. 617 هـ) يزيل هذا الالتباس ويشرح مصطلح الجوف شرحا نطقيا سليما إذ يقول: "سميت هذه الحروف جوفا لأنه لا مماسة فيها ولا مصادمة فكأنها جوف"[4]؛ وهذا التفسير أنسب لخصائص هذه الحركات كما هي مقررة في الدرس الصوتي الحديث، "فهو يشير إلى السمة الأساسية في نطق هذه الحروف، وهي خلو مجراها الهوائي من أي عائق".[5]

ويشير الخليل كذلك إلى دور الشفتين في إنتاج الضمتين القصيرة والطويلة بقوله: "وأنت تتكلف في إخراج الضمة إلى تحريك الشفتين مع إخراج الصوت، وفي إخراج الفتحة إلى تحريك وسط الفم مع إخراج الصوت"[6]. لا ندري قصد الخليل بتحريك وسط الفم عند النطق بالفتحة، ولكن إشارته إلى دور الشفتين في إنتاج الضمتين إشارة رائدة أكد عليها الدرس الصوتي الحديث، إذ يتم تصنيف الحركات، بناء على مشاركة الشفتين في إنتاجها أو عدمه، إلى حركات "مستديرة وغير مستديرة، فالحركة المستديرة تتحقق باستدارة الشفتين [u] وغير المستديرة بانفراجها [i]"[7].

كما يؤكد الفخر الرازي (ت. 606هـ) على عضو الشفتين في إنتاج الحركات فيقوله: "من أراد أن يتلفظ بالضمة، فإنه لا بد له من ضم شفتيه أولا ثم رفعهما ثانيا، ومن أراد التلفظ بالفتحة، فإنه لا بد له من فتح الفم بحيث تنتصب الشفة العليا عند ذلك الفتح، ومن أراد التلفظ بالكسرة، فإنه لا بد له من فتح الفم فتحا قويا، والفتح القوي لا يحصل إلا بانجرار اللِّحْيِ الأسفل وانخفاضه"[8]، فالشفتان تَنضمّان وترتفعان مع الضمة، بينما تنفرجان

[1]ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (ت. 833هـ):النشر في القراءات العشر: أشرف على تصحيحه ومراجعته علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، د.ت.: 199/1.

[2]الأزهري، محمد بن أحمد (ت. 370 هـ): تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون/ محمد علي النجار، د. ط.، دار القومية العربية للطباعة، 1964: 1/ 41.

[3] ابن منظورأبو الفضل (ت. 711هـ):المرجعُ نفسه، مادة (جوف).

[4]الخوارزمي، القاسم بن الحسين (ت. 617 هـ): شرح المفصل في صنعة الإعراب الموسوم بالتخمير، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990: 453.

[5] زاهيد، عبد الحميد: المرجعُ نفسه: 39.

[6]الأشباه والنظائر: ط. 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1984: 1/ 193.

[7] زاهيد، عبد الحميد: المرجعُ نفسه ، 72.

[8]الرازي، فخر الدين (ت. 606هـ): التفسير الكبير، ط. 3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420 هـ: 1/ 48.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

وتنفتحان مع الفتحة والكسرة، وهنا يشير الرازي إلى عضو جديد يسهم في إنتاج الكسرة وهو اللِّحْيُ الأسفل، والمقصود به الفك السفلي، وهو مالم تثبته الدراسات الصوتية الحديثة، ولعل هذا الانجرار في الفَكّ نتيجة لانفراج الشفتين، أو لحركة اللسان.

وقد تنبه سيبويه (ت. 180هـ) إلى دور عضو اللسان في إنتاج الحركات، وكذلك دور الشفتين في إنتاج الضمتين، وذلك في قوله: "ومنها الهاوي: وهو حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو؛ لأنك قد تضم شفتيك في الواو، **وترفع في الياء لسانك قبل الحنك**، وهي الألف"[1]. يتضمن هذا النص إشارة صريحة ومتقدمة في الزمان إلى عضو اللسان ودوره في إنتاج الكسرة الطويلة (الياء)، وهي إشارة مُوَفّقة وموافقة لمعطيات علم الأصوات الحديث؛ لكنها إشارة مجملة وغير مفصلة، لأن عضو اللسان يسهم في إنتاج كل الحركات، وليس الياء فقط، وبناء على حركة اللسان توصف الحركات بجملة من الصفات النطقية وهي: "مغلقة (Fermée) ونصف مغلقة (Mi fermée)، ونصف منفتحة (Mi ouverte) ومنفتحة (Ouverte)، وهذه الصفات خاصة بالحركة العامودية للسان، من الأعلى إلى الأسفل، أما الحركة الأفقية، فيترتب عليها صفتان وهما: أمامية (Antérieur) وخلفية (Postérieur)، فالحركة الأمامية هي التي تتحقق بتقدم اللسان إلى الأمام، والخلفية عكس ذلك"[2].

ويشير ابن جني (ت. 392هـ) إلى كيفية إنتاج الحركات، والأعضاء النطقية التي تسهم في إنتاجها، وذلك في قوله: "أما الألف فتجد الحلق والفم معها منفتحين، غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر، وأما الياء فنجد معها الأضراس سُفلا وعُلوا قد اكتنفت جنبتي اللسان وضغطته، وتفاجَّ الحنك عن ظهر اللسان، فجرى الصوت متصعدا هناك، فلأجل تلك الفجوة ما استطال، وأما الواو فتضم لها معظم الشفتين، وتدع بينهما بعض الانفراج، ليخرج فيه النفس، ويتصل الصوت"[3]. نلاحظ أن ابن جني قد حدد لكل حركة طريقة إنتاجها، والأعضاء المتدخّلة فيها، وقد ذكر إسهام الشفتين في حركتي الضمة، كما ذكر عضو اللسان في الياء، وإن كان وصفه لعمل اللسان غير دقيق، حيث لم يذكر حركتَيه العمودية والأفقية بشكل واضح، ثم ذكر عضوا ثالثا وهو الحنك، ويظهر من ربطه بظهر اللسان أنه الحنك اللين، ولكن دوره في إنتاج الحركات غير واضح في كلام ابن جني، لأن دور الحنك اللين في الصوتيات الحديثة، هو التمييز "بين الحركات الأنفية (Nasales) والحركات الفموية (Orales)، فعندما يلتصق الحنك اللين بجدار الحلق التصاقا محكما، يمنع الهواء من المرور عبر التجويف الأنفي، فتكون الحركة فموية، وعندما يبتعد الحنك اللين عن جدار الحلق، يسمح للهواء بالمرور عبر التجويف الأنفي فتكون الحركة أنفية"[4].

[1] سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت. 180هـ): الكتاب، تحقيق؛ عبد السلام محمد هارون، د. ط، مكتبة الخانجي، د. ت.: 4/ 435 – 436.

[2] زاهيد، عبد الحميد: المرجعُ نفسه: 71.

[3] ابن جني: سر صناعة الإعراب: 1/ 7.

[4] زاهيد: المرجعُ نفسه: 73.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

3 . الخصائص الصوتية للحركات عند القدماء

تعرض القدماء لجملة من الخصائص الصوتية للحركات القصيرة والطويلة، فوقفوا عند الخصائص التي تميزها عن الحروف "الصوامت"، وكذلك ما يميز الحركات بعضها عن بعض، فنجدهم يتحدثون عن اختلافها من حيث الامتداد، ودرجة الانفتاح، والخفة والثقل، والقوة والضعف.

تتسم الحركات في الدرس الصوتي الحديث بمجموعة من الصفات الصوتية، على رأسها الانفتاح الناتج عن خلو مخرجها من أي عائق، والامتداد، والوضوح السمعي الناتج عن الجهارة، وقد تَوفّق القدماء إلى حد بعيد في رصد مجمل هذه الصفات.

يرصد ابن جني صفة الانفتاح في الحركات بقوله: "والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف ثم الياء ثم الواو، وأوسعها الألف.. وأما الألف فتجد الحلق والفم معها منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر.."[1]، ويقول مكي بن أبي طالبفي وصف الألف: "إنما هو حرف اتسع مخرجه في هواء الفم"[2]. ويضيف البغدادي: "واعلم أن هذه الحروف أخفى الحروف لاتساع مخرجها، وأخفاهن الألف، وهي أوسعهن مخرجا"[3]. تتضمن هذه النصوص إشارة صريحة من القدماء إلى صفة الانفتاح، والاتساع في المخرج، الناتجين عن خلو المجرى الصوتي من أي ضغط (انفجار) أو حصر (احتكاك). ونعترض هنا على وصف البغدادي الألف بالخفاء، فلا ندري ما المقصود بالخفاء عنده، والظاهر أنه خفوت في الصوت، وهو أمر لا يستقيم، ليس فقط مع الألف بل مع عموم الحركات القصيرة والطويلة، بل إن الأمر عكس ذلك، فالصوتيات الحديث تثبت أن الفتحة والألف أوضح الحركات مقارنة مع الضمة والواو، والكسرة والياء، فقد أثبتت التجارب الصوتية أنه كلما اتسع مخرج الحركة كانت أوضح، وكلما ضاق كانت أخفت.

ولم يقف تصور القدماء عند هذا الحد، بل تمكنوا كذلك من إدراك اختلاف الحركات من حيث درجة الانفتاح، وتصنيفها بناء على ذلك، يقول الاسترابادي (ت. 686هـ): "واتساع مخرج الألف لهواء صوته أكثر من اتساع مخرجي الواو والياء لهواء صوتيهما... وإنما كان الاتساع للألف أكثر؛ لأنك تضم شفتيك للواو فيتضيّق المخرج، وترفع لسانك قبل الحنك للياء، وأما الألف فلا تعمل لها شيئا من هذا"[4]. يتضمن هذا النص ملحوظتين مهمتين: الأولى تصنيف الفتحة الطويلة "الألف"، ومعها الفتحة القصيرة، باعتبارهما أكثر الحركات انفتاحا، مقارنة مع الواو والياء، والثانية تفسير هذا التصنيف تفسيرا يعتمد على كيفية الإنتاج، حيث إن الألف أكثر انفتاحا لكونها لا تُنتج بتضييق الشفتين كما هو الحال في الواو، أو برفع اللسان قِبَل الحنك كما هو الحال في الياء؛ وهو ما أثبتته الدراسات الصوتية الحديثة.

---

[1] ابن جني: سر صناعة الإعراب: 1/ 7.

[2] مكي ابن أبي طالب: المرجعُ نفسه: 134.

[3] البغدادي: المرجعُ نفسه: 1/305-306.

[4] الإسترابادي، رضي الدين محمد بن الحسين (ت. 686هـ): شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق محمد نور حسن/ محمد الزفزاف/ محمد محي الدين عبد الحميد، د. ط.، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1982: 3/ 261.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

أما صفة الامتداد، فنجدها في العديد من النصوص الواردة في متون القدماء، ومنها قول الرازي (ت. 606هـ): "فهذا الحرف المصوت إنما حدث لجريان نفَسه وامتداده، فلهذا السبب صحت تسميته بالمجرى"[1]، ويضيف في موضع آخر: "الحروف الصلبة لا تقبل التمديد، والحركة قابلة للتمديد"، فالرازي هنا يقابل بين نوع من الصوامت وهي "الانفجارية" من جهة، والحركات من جهة أخرى، ويميز بينهما من حيث قابلية الامتداد، "وتمديد الصوت رهين بطبيعته النطقية، فالحروف الانفجارية تتميز بانسداد مجرى الهواء، الشيء الذي ينتج عنه عدم إمكانية تمديد الصوت، أما الحركات فمجراها الهوائي خال من أي عائق مما يتيح إمكانية تمديد الصوت بها"[2].

ومن جانب آخر، رصد القدماء تفاوت الحركات في صفة الامتداد، أي أن بعضها أكثر امتدادا من الآخر، يقول ابن جني(ت. 392هـ): "والألف أمدّهن صوتا، وأنداهن وأشدهن إبعادا وأنآهن"[3]، ونفس الرأي يشاطره علماء التجويد، يقول الجزري:"وأمكنهن عند الجمهور الألف، وأبعدَ ابن الفحّام فقال: أمكنهن في المد الواو، ثم الياء، ثم الألف".[4] ويرصد ابن الباذش (ت. 540هـ) اختلاف العلماء في ترتيب الحركات من حيث درجة الامتداد بالقول: "وأمكنهن في المد الألف، ثم الياء، ثم الواو، وكان أبو القاسم يحكي لنا عن أبي بكر الصقلي أنه كان يذهب إلى أن أمكنهن في المد الواو ثم الياء ثم الألف، وهكذا وضع هذا أبو بكر في كتابه المعروف ب (الاقتداء)".[5]، نتبين من هذه النصوص أن جمهور القدماء يجعلون الألف أمكن الحركات في المد، تليها الياء ثم الواو، بيد أن هناك منهم من يرتبها ترتيبا آخر يجعل الواو أكثر مدا، تليها الياء، ثم الألف، وما توصل إليه الدرس الصوتي الحديث يؤيد رأي الجمهور؛ لأن "الحركات المنفتحة كالألف مثلا تكون مدتها الزمنية أطول من الحركات المغلقة كالياء، وتأتي الواو لتتوسط بينهما لأنها ليست بحركة منفتحة ولا منغلقة"[6].

أما صفة الجهارة والوضوح السمعي، فلم تكن واضحة عند اللغويين[7]، مثل الصفتين السابقتين، إذ لا نجد لها ذكرا متواترا، اللهم بعض الإشارات الطفيفة، ومن بينها قول الطبري (ت. 310هـ): "ذلك أن الألف، إذا كانت بين حرفين، كان لها صدى، كنحو الصوت يكون في جوف الشيء، فيتردد فيه، فتكون أكثر وأبين"[8]. ولا يمكن أن نفسر الصدى هنا إلا بجهارة الصوت ووضوحه السمعي كما هو الحال في الألف، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الصدى الوارد عند الطبري، لا ينحصر فقط في الألف بل يعم الحركات عموما، وهذا ما أثبتته التجارب الصوتية الحديثة.

---

[1] الرازي، فخر الدين: المرجعُ نفسه: 1/ 57.

[2] زاهيد، عبد الحميد: المرجعُ نفسه: 25.

[3] اين جني أبو الفتح: الخصائص، تحقيق محمد على النجار، المكتبة العلمية، (د.ت): 3/ 155.

[4] ابن الجزري: النشر في القراءات العشر: 204/1.

[5] ابن الباذش، أبو جعفر أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري (540هـ): الإقناع في القراءات السبع، تحقيق عبد المجيد قطامش، ط1، سلسلة من التراث الإسلامي الكتاب 23، كلية الشريعة الدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1403هـ.: 468/1.

[6] زاهيد: المرجعُ نفسه: 125-126.

[7] على عكس اللغويين، نجد عناية كبيرة بهذه الصفة الصوتية للصوائت في دراسات الموسيقيين العرب القدماء.

[8] الطبري، محمد بن جرير (ت. 310هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود محمد شاكر، د. ط. دار المعارف، مصر، د. ت.: 15/ 399.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

ومن الصفات الصوتية التي تعرض لها القدماء في دراسة الحركات، صفتا الخفة والثقل، حيث وازنوا بين الحركات وصنفوها إلى خفيفة وثقيلة بناء على وضعها النطقي من جهة، وأدائها الصرفي من جهة ثانية. أما على المستوى النطقي، فيقول الفراء (ت. 207هـ) مصنفا الحركات، ومفسرا هذا التصنيف تفسيرا نطقيا: "فإنما يستثقل الضم، والكسر؛ لأن لمخرجيهما مؤونة على اللسان، والشفتين تنضم الرفعة بهما، فيثقل الضمة، ويُمال أحد الشدقين إلى الكسرة، فترى ذلك ثقيلا. والفتحة تخرج من خرق الفم بلا كلفة"[1]؛ فأخف الحركات في نظر الفراء الفتحة لأنها تخرج بلا كلفة، وذلك في نظره لعدم احتياجها إلى جهد نطقي يذكر، بخلاف الكسرة والضمة، ففي نطقهما مؤونة على اللسان، لحاجته إلى الارتفاع، ومؤونة على الشفتين لحاجتهما إلى الاستدارة، ومؤونة على أحد الشدقين لحاجته إلى الانفراج؛ ولعمري إن هذا الوصف الدقيق من الفراء يعتبر سابقا لزمانه، ولا يختلف عن نتائج الدرس الصوتي الحديث من المنظور الفزيولوجي؛ أما صفتا الخفة والثقل فمرتبطتان بالجانب الإدراكي أكثر من ارتباطهما بالجانب الفزيولوجي، وبسبب ما شرحه الفراء من المؤونة الفزيولوجية المذكورة أدركت الأذن في الفتحة خفة إدراكية، كما أدركت في الضمة والكسرة ثقلا إدراكيا. إن التناغم بين المستويين الفزيولوجي والإدراكي عند الفراء والقدماء عموما ليعتبر ملمحا يدل على حسهم المرهف في دراستهم للأصوات بعيدا عن التجارب والمختبرات.

وإذا كان الفراء لم يوازن بين الضمة والكسرة في الخفة والثقل فقد وازن بينهما غيره من اللغويين، فهذا الفخر الرازي، يستخدم مصطلحات تشريحية لبيان عِلّة الخفة والثقل في الحركات، يقول: "أثقل الحركات الضمة، لأنها لا تتم إلا بضم الشفتين، ولا يتم ذلك إلا بعمل العضلتين الصلبتين الواصلتين إلى طرفي الشفة، وأما الكسرة فإنه يكفي في تحصيلها العضلة الواحدة الجارية، ثم الفتحة يكفي فيها عمل ضعيف لتلك العضلة، وكما دلت هذه المعالم التشريحية على ما ذكرناه فالتجربة تظهره أيضا"[2].ونفس التفسير نجده عند ابن يعيش (ت. 643هـ)، حيث يجعل الياء وسطا بين الألف الأخف، والواو الأثقل فيقول: "اعلم أن الواو أثقل من الياء والألف، والمعني بالثقل أن الكلفة عند النطق بالحرف تكون أكثر، والياء أخف من الواو وأثقل من الألف. وإذا تدبرت ذلك عند النطق بالحرف وجدته صحيحا"[3].

ولعل ما ذهب إليه الرازي وابن يعيش له ما يسوغه على المستوى الفزيولوجي؛ فالضمة أثقل الحركات راجع إلى أنّها تنتج باستدارة عضوين وهما الشفتان، إضافة إلى ما نستشعره من مؤونة في ضم هذين العضويين، أما كون الكسرة تتوسط الضمة والفتحة، فذلك راجع إلى أن الكسرة غُفْلٌ من استدارة الشفتين، بل إن حركتهما حركة انفراج، والانفراج أخف من الاستدارة، ومن هذا المنظور صنفت الضمة أثقل من الكسرة، أما الفتحة فليس فيها استدارة الضمة ولا انفراج الكسرة، ولهذا يحس الناطق بها بخفة لا نجدها في الحركات الأخرى.

[1] الفراء، أبو زكرياء يحيى بن زياد (ت. 207هـ): معاني القرآن؛ تحقيق محمد علي النجار، د. ط، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب، 1980.: 2/ 13.

[2] الرازي، فخر الدين: المرجعُ نفسه: 1/ 48.

[3] ابن يعيش (ت. 643هـ): شرح الملوكي في التصريف، تحقيق فخر الدين قباوة، ط. 2، دار الأوزعي، 1988: 410.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

أما مستوى الأداء الصرفي للحركات، فنستشفه من جملة من النصوص من بينها قول ابن جني: "ومنه إسكانهم نحو رسُل، وعجُز، وعضُد، وظرُف، وكرُم، وعلُم، وكتُف، وكبُد وعصُر، واستمرار ذلك في المضموم والمكسور، دون المفتوح، أدل دليل –بفصلهم بين الفتحة وأختيها– على ذوقهم الحركات، واستثقالهم بعضها، واستخفافهم الآخر"[1]. فعلى مستوى الأداء الصرفي، يجوز تفريغ الحرف من الضمة والكسرة (تسكينه) دون الفتحة، في الثلاثي المضموم العين ومكسورها ونحوه، وذلك يعتبر دليلا إضافيا إلى الدليل النطقي على خفة الفتحة أكثر من أختيها الكسرة والضمة؛ ولعلنا نعمق التحليل أكثر، ونوجه تفسير الخفة والثقل إلى ما يعرف ب"الحدة والسُّمك" "High / Low Pitch"؛ فثقل الضمة والكسرة قد يعود إلى طبيعتهما الأكوستيكية، وذلك لكونهما ينجزان بتردد أساسي (F0) مرتفع لكونهما حركتان مغلقتان، أما خفة الفتحة فتعود أيضا إلى طبيعتها الأكوستيكية، وذلك لكونها تنجز بتردد أساسي منخفض لكونها حركة منفتحة. فالانغلاق والانفتاح يحددان طبيعة التردد الأساسي للحركة، ف" الحركات المغلقة /u/،/i/ ذات تردد مرتفع مقارنة مع الحركات المنفتحة /a/، مما يجعلها أكثر حدة وقوة من نظيراتها"[2].

4. المدة الذاتية والموضوعية للحركات

قسم القدماء المد الحركي إلى نوعين: طبيعي وعرضي "فالطبيعي: هو الذي لا تقوم ذات حرف المد دونه، والعرضي: هو الذي يعرض زيادة على الطبيعي لموجب يوجبه"[3]، وسمي الأول طبيعيا، لأنه قائم في ذات الحركة،ومكون من مكوناتها، وليس مجتلبا، وأما الثاني فسمي عرَضيا لأنه يعرض للحركة في حالات مخصوصة، وليس ملازما لها في كل أحوالها؛ وقد اصطلح على المدة الذاتية والموضوعية عند القدماء بمصطلحات عديدة، منها "المد والقصر"، يقول ابن الجزري: "والمد في هذا الباب هو عبارة عن زيادة مط حرف المد على المد الطبيعي، وهو الذي لا يقوم ذات حرف المد دونه. والقصر عبارة عن ترك تلك الزيادة، وإبقاء المد الطبيعي على حاله"[4].ويستخدم البناء مصطلحي "المد الفرعي" و"المد الأصلي" : "والمراد بالمد: الفرعي، وهو زيادة المد على المد الأصلي، وهو الطبيعي الذي لا تقوم ذات حرف المد إلا به، والقصر ترك تلك الزيادة"[5]، تدل هذه المصطلحات –السالفة الذكر– على وجود نوعين من المدة الزمنية في حروف المد، النوع الأول هو "مدة الحركة حالة كونها مجردة عن السياق، وهو ما يعرف في علم الأصوات الحديث بالمدة الذاتية (Durée intrinsèque)"[6]، والنوع الثاني هو المدة الزمنية التي تكتسبها الحركات في سياقات خاصة، و"تتغير بفعل عوامل خارجية، قد تكون عوامل لغوية أو غير لغوية، وفي هذه الحالة تسمى بالمدة الموضوعية (Durée

[1] ابن جني: الخصائص: 1/ 75.

[2] زاهيد، عبد الحميد: المرجعُ نفسه: 87.

[3] ابن الطحانالسماتي (ت. 561هـ):مرجع سابق: 63.

[4] ابن الجزري: النشر في القراءات العشر: 313/1 ويقول ابن الطحان في تعريف القصر: "عبارة عن صيغة حرف المد واللين، وهو المد الطبيعي." انظر: مرشد القارئ: 64.

[5] البناء: المرجعُ نفسه: 53.

[6] زاهيد: المرجعُ نفسه: 124.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

cointrinsèques)"[1]. وتجدر الإشارة أن حديث القدماء قد تركز فقط على الحركات الطويلة دون الحركات القصيرة، وواقع الأمر غير ذلك، فحتى الحركات القصيرة قد تطول مدتها في سياقات معينة وقد تقصر، كما هو الشأن في الحركات الطويلة.

4-1 العوامل اللغوية

يلخص القدماء أهم العوامل اللغوية التي تؤدي إلى زيادة المدة الزمنية للحركات الطويلة في:**الهمزة** والحرف **المشدد**؛ يشرح ابن جني سبب المد مع الهمز بقوله:"فالهمزة نحو كساء، ورداء، وخطيئة، ورزيئة، ومقروءة، ومخبوءة. وإنما تمكن المد فيهن مع الهمز، أن الهمزة حرف نأى منشؤه، وتراخى مخرجه، فإذا أنت نطقت بهذه الأحرف المصوتة قبله، ثم تماديت بهنّ نحوه طُلن وشِعن في الصوت فوفّين له، وزدن في بيانه ومكانه، وليس كذلك إذا وقع بعدهن غيرها"[2]. فالسبب عند ابن جني في مطل الحركات، وزيادة مدتها الذاتية، هو سبب نطقي يتجلى في بعد مخرج الهمزة عن مخرج الصوائت الطويلة، فيحتاج المتكلم إلى زيادة مدها للتوصل إلى نطق الهمزة من مخرجها، ويوافقه في هذا التفسير بعض الأصواتيين المحدثين مع تفصيل أكثر، يقول إبراهيم أنيس: "أما السر في الإطالة فهو –كما يبدو لي– الحرص على صوت اللين وطوله، لئلا يتأثر بمجاورة الهمزة أو الإدغام، لأن الجمع بين صوت اللين، والهمزة، كالجمع بين متناقضين، إذ الأول يستلزم أن يكون مجرى الهواء معه حرا طليقا، وأن تكون فتحة المزمار حين النطق به منبسطة منفرجة، في حين أن النطق بالهمزة يستلزم انطباق فتحة المزمار انطباقا محكما، يليه انفراجها فجأة. فإطالة صوت اللين مع الهمزة يعطي المتكلم فرصة ليتمكن من الاستعداد للنطق بالهمزة التي تحتاج إلى مجهود عضوي كبير، وإلى عملية صوتية تباين كل المباينة الوضع الصوتي الذي تتطلبه أصوات اللين".[3]

والظاهر أن ما ذهب إليه إبراهيم أنيس؛ ما هو إلا إعادة تفسير لما ذهب إليه ابن جني، ولكن بمصطلحات صوتية حديثة؛ والسبب في نظرنا ليس كما ذهب إليه ابن جني وتبعه في ذلك إبراهيم أنيس، وذلك أن إطالة الألف المتبوعة بهمز هي إطالة موضوعية لا غير، وهذه الإطالة لازمة كي لا تتحول الحركة الطويلة إلى حركة قصيرة، فهب مثلا أننا اختزلنا الألف عوض إطالتها في كلمة (سماء) كما يحدث في "روم" الحركات، لتحولت الألف إلى فتحة، ولنطقنا كلمة (سماء) بدون ألف (سَمَء)،كما ننطق كلمة (كَلَأ)، فجاءت إطالة الألف المتبوعة بالهمزة دفعا لاختزال حركي قد يحول الألف الطويلة إلى فتحة قصيرة، قد تُغيّر المعنى (الوظيفة التمييزية) في حال وجود زوج أدنى "Minimal Pair".

أما زيادة المد مع الحرف المشدد، فيفسره ابن جني بقوله: "أما سبب نَعْمَتِهِنّ، ووفائهن، وتماديهن إذا وقع المشدد بعدهن؛ فلأنهن –كما ترى– سواكن، وأول المثلين مع التشديد ساكن، فيجفو عليهم أن يلتقي الساكنان حشوا في كلامهم، فحينئذ ما ينهضون بالألف بقوة الاعتماد عليها، فيجعلون طولها، ووفاء الصوت بها، عوضا

[1] المرجعُ نفسه: 124.

[2] ابن جني: الخصائص: 3/ 125

[3] أنيس، إبراهيم: الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، 2010م:149. وينظر أيضا: القرالة، زيد خليل: الحركات في اللغة العربية: دراسة في التشكيل الصوتي، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2004م.: 57-58.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

مما كان يجب لالتقاء الساكنين من تحريكها... وذلك نحو شابّة، ودابّة"[1]. لا نوافق ابن جني فيما ذهب إليه من اعتماده التقاء الساكنين مبررا، وذلك أن الحركات كلها ليست سواكنا، بل إنها لم تسمَّ حركات إلا لأنها تُحرك السواكن، فالحركة ضد الساكن، فهي صوائت في مقابل الصوامت.

نثمن ما ذهب إليه ابن جني في ربطه إطالة الحركة الطويلة بسياق الحرف المشدد، ولكن التفسير الذي قدمه من التقاء الساكنين لا يستقيم صوتيا كما أسلفنا الذكر، ونرى أن الطبيعة الصوتية للحرف المشدد هي التي أملت على المتكلم إطالة الصوت بالألف السابقة للحرف المضعف، وذلك أن الحرف المضعف هو حرف واحد بمدة زمنية طويلة مضَعّفة، مقارنة مع الحرف غير المُضعّف، فكلاهما حرف واحد بمُدّتين زمنيتين مختلفتين. فعند النطق به مسبوقا بحركة طويلة، تلتقي المدة الطويلة للحركة الطويلة، والمدة الطويلة للحرف المضعف، فيتولد عنهما مد زمني ملحوظ زائد عن المعتاد، فالمسألة التقاء مدتين زمنيتين طويلتين، وليس التقاء ساكنين كما ذهب إلى ذلك ابن جني رحمه الله.

4-2 العوامل غير اللغوية

المقصود بهذه العوامل: الأحوال السياقية، والمقاصد الكلامية المصاحبة للتكلّم، ويسميها القدماء "السبب المعنوي" للمد، في مقابل العوامل اللغوية التي سموها "السبب اللفظي". وفي مقدمة هذه المقاصد، "المبالغة"، و"الانكار" و"التذكر"، و"الندبة".

4-2-1 مد المبالغة

يقول السيوطي (911هـ): "وأما السبب المعنوي: فهو قصد المبالغة في النفي، وهو سبب قوي مقصود عند العرب، وإن كان أضعف من اللفظي عند القراء، ومنه مد التعظيم في نحو: ﴿لا إله إلا هو﴾، ﴿لا إله إلا الله﴾، ﴿لا إله إلا أنت﴾، وقد ورد عن أصحاب القصر في المنفصل لهذا المعنى، ويسمى "مد المبالغة". قال ابن مهران في "كتاب المدات": إنما سمي مد المبالغة؛ لأنه طلب للمبالغة في نفي إلهية سوى الله تعالى، قال: وهذا مذهب معروف عند العرب؛ لأنها تمد عند الدعاء، وعند الاستغاثة، وعند المبالغة في نفي شيء، ويمدون ما لا أصل له بهذه العلة. قال ابن الجزري: وقد ورد عن حمزة مد المبالغة للنفي في (لا) التي للتبرئة نحو: [لا ريبفيه]"[2]. إن مد الحركات بفعل العوامل غير اللغوية، هو مقامات تداولية يسعى المتكلم فيها إلى تضمين معنى تداولي بتغيير في مدة الحركة على المستوى القطعي؛ فتنطق هذه المُدّة بإطالة زمنية تكسب الحركة مدة موضوعية. وتفسير هذه الإطالة على مستويين: أولا: إطالة على المستوى القطعي، وثانيا: الضغط على المقطع المنبور الذي تكون نواته الحركة الممطولة، وتسمى هذه الظاهرة التطريزية بـ: (النبر الإلحاحي)؛ فالوظيفة الإلحاحية التي يقوم بها هذا النوع من النبر على مستوى الجمل، تتحقق فزيائيا بشكل ملحوظ على مكون المدة الزمنية، فتطول بحسب حاجة المتكلم إلى الدعاء، أو الاستغاثة، أو المبالغة، أو النفي، أو نحو ذلك. إننا لا نجزم أن مكون المدة الزمنية هو العامل الذي يتحقق به النبر الإلحاحي في العربية، فالإجابة عن هذا السؤال تحتاج

[1] ابن جني: الخصائص: 3/ 126.

[2] السيوطي، جلال الدين (ت. 911هـ):الإتقان في علوم القرآن، د. ط. دار الندوة الجديدة، لبنان. د. ت.: 1/ 99.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

إلى دراسة مختبرية. كما تجدر الإشارة إلى أن هذه المدة الموضوعية ليست على سُلّم واحد من الطول، بل إنها تتفاوت بتفاوت المقامات السالفة الذكر، وإنا لنخال أن مقام الاستغاثة قد يكون أطولها على الإطلاق.

4-2-2 مد الإنكار

ومن العوامل السياقية للمدة الموضوعية: "مدة الإنكار؛ نحو قولك في جواب من قال: رأيت بكرا: أبَكْرَنِيه، وفي جاءني محمد: أمُحمّدَنِيه، ... وذلك أنك ألحقت مدة الإنكار، ... فإن قيل: أفتَنُصّ في هذه المدة على حرف معين: الألف أو الياء أو الواو؟ قيل: لم تظهر في شيء من الإنكار على صورة مخصوصة، فيقطع بها عليها دون أختيها، وإنما تأتي تابعة لما قبلها، ألا تراك تقول في قام عمر: أَعمروه، وفي رأيت أحمد: أأحمداه، وفي مررت بالرجل آلرَّجُلِيه"[1].

4-2-3 مد الندبة

وعلى منوال مَدّة الإنكار، نجد المَدّ المصاحب للندبة، وفيه يقول ابن جني: "الإنكار مُضاه للندبة. وذلك أنه موضع أريد فيه معنى الإنكار، والتعجب؛ فمُطِل الصوتُ به، وجُعِل ذلك أمارة لتناكره؛ كما جاءت مدة الندبة إظهارا للتفجع، وإيذانا بتناكر الخطب الفاجع، والحدث الواقع... الغرض في الموضعين جميعا إنما هو مطل الصوت، ومده وتراخيه، والإبعاد فيه لمعنى الحادث هناك"[2]. ويمثل ابن جني للمد المصاحب للندبة بقوله: "وا غلام زيداه"[3]. إن مدّ الإنكار والندبة –حسب ما ذهب إليه ابن جني– راجع إلى العوامل التداولية التي تدفع المتكلم إلى الإطالة بالألف؛ ولكن تفسيرنا لما يحدث صوتيا لا يقتصر فقط على التغييرات القطعية التي تطرأ على الألف، بل إنها مرتبطة بالظواهر التطريزية التي يستعين بها المتكلم في سياقات تداولية مختلفة للتعبير عن إحساس من الأحاسيس. فالعامل الصوتي المباشر لإطالة الصوت هو المستوى الفوق – قطعي المتمثل في الضغط على المقطع الذي يحمل أداة ندبة كـ (وا)، والمقطع الذي يحمل الألف الممتدة (داه)، وكذلك الضغط على المقطع الذي يحمل أداة استفهام كما في الإنكار(أَ)، والمقطع الذي يحمل الألف الممتدة (داه)، وذلك كقولنا في الندبة: (وا محمداه)، وفي الإنكار: (أمحمداه/ أمحمدنيه). وتجدر الإشارة بأن هذين النبرين الإلحاحيين في المقطعين السالفي الذكر، يشكلان سمتين تمييزيتين لتنغمي ملفوظي الندبة والإنكار.

4-2-4 مد التذكر

ومن الأسباب المعنوية للمد الزائد عند ابن جني كذلك: التذكر، "وإنما مُطِلت ومُدّت هذه الأحرف في الوقف وعند التذكر، من قبل أنك لو وقفت عليها غير مطولة ولا ممكنة المدة، فقلت: ضربا، وضربوا، واضربي، وما كانت هذه حاله، وأنت مع ذلك متذكر، لم تُوجِد في لفظك دليلا على أنك متذكر شيئا، ولأَوْهمت كل الإيهام أنك قد أتممت كلامك، ولم يبق من بعده مطلوب متوقع لك؛ لكنك لما وقفت ومطلت الحرف، عُلم بذلك أنك

[1] ابن جني: الخصائص: 3/ 154.

[2] ابن جني: المرجعُ نفسه: 3/ 155.

[3] ابن جني: المرجعُ نفسه: 3/ 156.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

متطاول إلى كلام تال للأول منوط به"[1]. تمثل محاولة التذكر عاملا سياقيا يدفع المتكلم إلى إطالة الصوت بحرف المد أكثر من مدته الذاتية، بحيث يَعلم المتلقي أن الكلام ما يزال مسترسلا ولم ينقطع بعد، فيظل ينتظر بقيته، أما إذا خلا الكلام من مد التذكر، فقد يتوهم المخاطَب أن الكلام قد تمّ وانتهى، وهو ما يوقع في اللَّبس. وحقيقة ما يجري صوتيا هو أن مد التذكر هو نوع من "الوقف" "Pause"، فليس الوقف يكون دائما بصمت بين ملفوظين أو كلمتين، كما هو الحال في (كلّ متني)، و(كلّمتني)، بل إن هذا النوع الذي أشار إليه ابن جني يسمى في الصوتيات الحديثة بـ "الوقف المنطوق" "Pauseoralisée"[2]، وهو وقف يسعى من خلاله المتكلم إلى ملء الفراغ بين وحدتين معجميتين، وذلك عن طريق تكرار مقاطع صوتية غير دالة مثل: (أاااااا) أو (مْمْمم)، أو عن طريق إطالة الحركة كما أشار إلى ذلك ابن جني في مد الحركات، وكما أورد ذكره في الحركات القصيرة في قوله: "كذلك الحركات عند التذكر يمطلن حتى يفين حروفا. فإذا صرنها جرين مجرى الحروف المبتدأة توام، فيمطلن أيضا حينئذ؛ كما تمطل الحروف. وذلك قولهم عند التذكر مع الفتحة في قمتَ: قمتا، أي قمت يوم الجمعة، ونحو ذلك، ومع الكسرة: أنتي، أي أنت عاقلة، ونحو ذلك، ومع الضمة: قمتو في قمتُ إلى زيد، ونحو ذلك"[3]. لقد كان ابن جني موفقا في الإشارة إلى أن المدة الموضوعية ليست مقتصرة على الحركات الطويلة الألف والواو والياء، بل يمكن أن نجدها كذلك في الحركات القصيرة الفتحة والضمة والكسرة، ولكن الأمر ليس كما تصوره ابن جني من افتراضه أن مد الحركة القصيرة يمر بمرحلتين: الأولى تحول الحركة القصيرة إلى طويلة، والثانية: مد الحركة الطويلة مدا زائدا. "أما ما يجري على المستوى الصوتي فتمديد لمدة الحركة لا غير. وسنشرح ذلك من الكلمتين الآتيتين: (قدِي) و(وازيداه)، فالكلمة الأولى قد تحولت الحركة من قصيرة إلى طويلة، أي من الكسرة إلى الياء، حيث أضفنا مدة زمنية إلى المدة الذاتية للكسرة فتحولت إلى ياء، وحتى يتضح ذلك على المستوى الكتابي أشرنا لها بالياء... أم الكلمة الثانية فقد مددنا فيها مدة الألف لتتحول من طويلة إلى أطول"[4].

5. العلاقة بين الحركات وحروف المد

أخذت العلاقة بين الحركات وحروف المد حيزا في التفكير الصوتي عند القدماء، فقد لاحظوا أن الفرق الأساسي بينهما يتلخص في المدة الزمنية، فتسألوا أيهما الأصل وأيهما الفرع؟

5-1 الرأي الأول

يرى أن حروف المد هي الأصل، والحركات هي الفرع، وهو رأي الجمهور. يقول ابن الجزري: "والجمهور على أن الفتحة من الألف، والضمة من الواو، والكسرة من الياء، فالحروف على هذا عندهم قبل الحركات"[5]. ودليلهم على ذلك كما يوضح ابن الجزري نفسه: " إن الحروف قبل الحركات، والثاني أبدا مأخوذٌ من الأول، والأول أصل له، ولا يجوز أخذ الأول من الثاني، لأنه يصير مأخوذا من المعدوم؛ واستدلوا أيضا على أن

[1] ابن جني: المرجعُ نفسه: 3/ 130

[2] Danielle Laroche-Bouvy, (1984), Les pauses et les silences dans l'intéraction verbal, P, 31.

[3] ابن جني: الخصائص: 3/ 131.

[4] زاهيد: المرجعُ نفسه: 135.

[5] ابن الجزري: النشر في القراءات العشر: 204/1.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

العرب لما لم تعرب أشياء من الكلام بالحركات، التي هي أصل الإعراب، أعربته بالحروف التي أخذت الحركات منها، وذلك نحو التثنية، والجمع السالم، ونحو الأسماء الستة، قالوا ألا ترى أنهم لما لم يعربوا هذا بالحركات أعربوه بالحروف التي أخذت الحركات منها"[1].

5-2 الرأي الثاني

يرى أن الحركات هي الأصل، وحروف المد هي الفرع، وبالتالي: ف "حروف المد واللين مأخوذة من الحركات، واستدلوا على ذلك بأن الحركات إذا أشبعت حدثت منها هذه الحروف الثلاثة؛ واستدلوا أيضا على أن العرب قد استغنت في بعض كلامها عن الواو بالضمة، وعن الياء بالكسرة، وعن الألف بالفتحة، فيكتفون بالأصل عن الفرع، لدلالة الأصل على فرعه"[2].

5-3 الرأي الثالث

يرى أن الحركات مستقلة عن حروف المد، وحروف المد مستقلة عن الحركات، فكلاهما أصول، وليس أحدهما فرعا عن الآخر، يقول ابن الجزري: "وقال بعض أهل النظر:ليست الحروف مأخوذة من الحركات، ولا الحركات مأخوذة من الحروف، إذ لم يسبق أحد الصنفين الآخر، على ما قدمناه من قول من قال: الحروف والحركات لم يسبق أحدهما الآخر"[3]. وهذا هو الرأي الذي صححه النويري في "شرح طيبة النشر" بقوله: "وهذا هو الصحيح؛ لأن الحركة عوض لازم للحرف المتحرك لا يوجد إلا به، فليس أحدهما أسبق من الآخر، ولا متولدا منه، لأنه متى فُرض متحركا، لا يمكن النطق به إلا مع حركته".[4]

وهذا الرأي الأخير له ما يعززه في الدرس الصوتي الحديث؛ لأن الحركات وحروف المد مكونان منفصلان متمايزان في النظامين الصوتي والصواتي العربيين، "فتظل الفتحة والألف –مثلا– فونيمين بالمفهوم السوسوري، ولكل واحد منها وظيفة تمييزية في اللغة، ف(كتب) ليست هي (كاتب)، ولا أرى إمكانية وجود الفتحة فقط في زمن معين تكون فيه أصلا، وفي زمن آخر يضاف إليها الألف، فاللغة محتاجة إليهما في وقت واحد حتى يحدث التواصل. ويلزم من هذا الكلام أنهما معا أصلان وليسا فرعين"[5].

6. الألفونات الحركية

الألفونات الحركية هي مجموعة من التحققات الصوتية المتنوعة للحركات في سياقات صوتية مختلفة، وأصل الألفون "مصطلح في اللسانيات الأمريكية، ويقصد به مجموعة من التحققات الصوتية لفونيم واحد، فالفونيم

[1] ابن الجزري: التمهيد في علم التجويد: 78– 79.

[2] ابن الجزري: التمهيد في علم التجويد: 79.

[3] المرجعُ نفسه: 81.

[4] شرح طيبة النشر: النويري: 229/1.

[5] زاهيد: المرجعُ نفسه: 59.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

مجموعة من الألفونات. ف [ph] مثلا في اللغة الألمانية، إن وجد قبل حركة يعد ألفونا لفونيم /p/... فلكل فونيم مجموعة من الألفونات المحدودة، وهذه التغيرات الصوتية لا تحمل قيمة وظيفية"[1].

وقد سبق علماء العربية إلى رصد التحققات الصوتية المختلفة للحروف والحركات، والتي تؤثر في المعنى، ولا تؤدي إلى اختلاف الدلالة، يقول ابن جني: "اعلم أنك كما قد تجد هذه المضارعة، وهذا التقارب بين الحروف، فقد تجده أيضا بين الحركات، حتى إنك تجد الفتحة مشوبة بشيء من الكسرة، أو الضمة نَحَوْا بها إليهما، وتجد الكسرة مشوبة بشيء من الضمة، والضمة مشوبة بطرف من الكسرة، ولا تجد الكسرة ولا الضمة مشوبة بشيء من الفتحة...

أما الفتحة المشوبة بالكسرة، فالفتحة التي قبلها **الإمالة** نحو فتحة عين (عابد) و(عارف)... وأما الفتحة الممالة نحو الضمة، فالتي تكون قبل ألف **التفخيم** وذلك نحو: (الصلاة) و(الزكاة)... وأما الكسرة المشوبة بالضمة فنحو: قِيل، وبِيع، وغِيض، وسِيق... وأما الضمة المشوبة بالكسرة فنحو الإمالة في: (مررت بمذعُور)"[2]. يبين ابن جني في هذا النص أنواعا مختلفة من التحققات الصوتية للحركات، حيث يحدث نوع من التأثير والتأثر فيما بينها، فلا تبقى الحركة خالصة كما هي، وأبرز هذه التحققات يتلخص في ظاهرتين في نص ابن جني وهما:"التفخيم" و"الإمالة".

وبالإضافة إلى عنصر التأثير والتأثر بين الحركاتكما هو الحال في الإمالة، والتفخيم، يشير فخر الدين الرازي إلى شكل آخر من هذه التحققات يعتمد أساسا على عنصر الطول والقصر، يقول في ذلك: "الحركات إما صريحة أو مختلسة، والصريحة إما مفردة أو غير مفردة، فالمفردة ثلاثة وهي: الفتحة، والكسرة، والضمة، وغير المفردة ما كان بين بين، وهي ستة لكل واحدة قسمان، فللفتحة ما بينها وبين الكسرة، أو ما بينها وبين الضمة، وللكسرة ما بينها وبين الضمة، أو ما بينها وبين الفتحة، والضمة على هذا القياس، فالمجموع تسعة. وهي إما مشبعة أو غير مشبعة، فهي ثمانية عشر، والتاسعة عشرة **المختلسة**"[3]. يضيف الرازي هنا ظاهرة أخرى لها دور في الألفونات للحركية، وهي الاختلاس، أو ما يعرف في الصوتيات الحديثة **بالاختزال الحركي**.

الخاتمة

يمكننا القول في خلاصة هذه الدراسة، أن البحث الصوتي في حركات العربية عند علماء الأصوات العرب القدماء كان متكامل الأركان، فقد أجابوا عن أسئلة صوتية عميقة تشكل أبعاد النظر العلمي في موضوع حركات العربية؛ من قبيل تحديد الصوائت باعتبارها فونيمات وألوفونات وتمييزها عن الصوامت، والتمييز بين الصوائت القصيرة ونظيرتها الطويلة، وتحديد الأعضاء المنتجة للحركات، والكشف عن خصائصها الصوتية،

[1] زاهيد: المرجعُ نفسه: 92.

[2] ابن جني: سر صناعة الإعراب: 1/ 51- 52.

[3] الرازي فخر الدين: المرجعُ نفسه: 1/ 47.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

والتمييز بين المدة الذاتية والموضوعية لكل من الحركات القصيرة والطويلة، بالإضافة إلى موضوعات صوتية دقيقة أخرى، لم تسعف مساحة البحث بتناولها بالتحليل.

لقد كان الكثير من تأملات القدماء في حركات العربية، تأملات رائدة وسابقة لزمانها بالنظر إلى اعتمادهم على الملاحظة والذوق لا غير، وعدم توفرهم على المختبرات، وأدوات التحليل الصوتي المتوفرة في زماننا هذا. ومن بين هذه الأنظار السديدة، الفصل الواضح بين الصوامت والصوائت في النظام الصوتي العربي، وتحديد عدد الصوائت الوظيفية في ستة، ثلاثة حركات قصيرة، وثلاثة حركات طويلة اصطلحوا على تسميتها بحروف "المد واللين، و"المصوتة"،"والهوائية"، والهاوية"، والذوائب"،وكان أساس هذه التسميات أساسا نطقيا.

ورغم استشكال الأعضاء المنتجة للحركات عندهم، إلا أنهم تمكنوا من تحديدها في الشفتين، واللسان، والحنك اللين؛ وإن كان توصيفهم لدور الحنك اللين غير واضح تماما. وبناء على تحديد مخارج الحركات، والأعضاء المنتجة لها، تمكن القدماء من تحديد الخصائص الصوتية الأساسية للحركات، وعلى رأسها سمة اتساع المخرج، وخلوه من العائق، والوضوح السمعي، وقابلية الامتداد، كما وازنوا بين الخفة والثقل في الحركات بالاعتماد على الأساسين النطقي والصرفي. وكانت جل أفكارهم في هذا الصدد موافقة لمعطيات الدرس الصوتي الحديث.

بالإضافة إلى ذلك استطاع القدماء أن يفصلوا بين المدة الذاتية للحركة، باعتبارها مكونا أكوستيكيا فزيائيا للحركة، وبين مدتها الموضوعية التي تكتسبها في سياقات لغوية مثل: الهمزة والحرف المشدد، وغير لغوية: مثل المبالغة، والإنكار، والندبة، والتذكر، لكن تفسيراتهم وتعليلاتهم لم تكن موفقة دائما، فأعدنا مراجعتها، وتصويب مظانها، معتمدين في ذلك على الأسس الصوتية الحديثة.

ومجمل القول، أنّهُ لا يسعنا إلا أن نسطر كلمة إنصاف في حق جهود القدماء في دراسة حركات العربية، فرغم اعتماد هذه الجهود على الملاحظة والذوق الذاتيين، كانت رائدة في زمانها، وتظل رائدة في زماننا، إذ جاءت في مجملها مسايرة لمقررات علم الأصوات الحديث، الذي يعتمد على علم التشريح، والمختبرات الصوتية.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

قائمة المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية:

- الأزهري، محمد بن أحمد (ت. 370 هـ): تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون/ محمد علي النجار، د. ط، دار القومية العربية للطباعة، 1964.
- الإستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسين (ت. 686هـ): شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق محمد نور حسن/ محمد الزفزاف/ محمد محي الدين عبد الحميد، د. ط.، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1982.
- أنيس، إبراهيم: الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، 2010م.
- ابن الباذش، أبو جعفر أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري (540هـ): الإقناع في القراءات السبع، تحقيق عبد المجيد قطامش، ط1، سلسلة من التراث الإسلامي الكتاب 23، كلية الشريعة الدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1403هـ.
- البغدادي، أبو محمد عبد الله بن علي بن أحمد (ت. 541هـ): المبهج في القراءات الثمان وقراءة الأعمش وابن محيصن واختيار خلف واليزيدي، تحقيق ودراسة وفاء عبد الله قزمار، رسالة دكتوراه كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1405هـ- 1985م.
- البناء، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي(1117هـ): إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: وضع حواشيه أنس مهرة، ط1، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.
- ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (ت. 833هـ)
  - التمهيد في علم التجويد، غانم قدوري، دار الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 142 هـ/2000م.
- النشر في القراءات العشر: أشرف على تصحيحه ومراجعته علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، د.ت.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت. 392هـ):
  - الخصائص تحقيق محمد على النجار، المكتبة العلمية، (د.ت).
  - سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي، ط 2، دار القلم، دمشق، 1993.
- الخوارزمي، القاسم بن الحسين (ت. 617 هـ): شرح المفصل في صنعة الإعراب الموسوم بالتخمير، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.
- الرازي، فخر الدين (ت. 606هـ): التفسير الكبير،ط. 3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420 هـ.
- زاهيد، عبد الحميد: حركات العربية دراسة في التراث الصوتي العربي: سلسلة الصوت 4، ط1،المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2005م.
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن (ت. 581هـ): نتائج الفكر في النحو، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود/ علي محمد معوض، ط. 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1992.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت. 180هـ): الكتاب، تحقيق؛ عبدالسلاممحمدهارون، د. ط، مكتبة الخانجي، د. ت.
- السيرافي النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، دراسة وتحقيق فائز عبد المنعم، ط. 1، دار الفكر، 1983.
- السيوطي، جلال الدين (ت. 911هـ):
  - الإتقان في علوم القرآن، د. ط. دار الندوة الجديدة، لبنان. د. ت.
  - الأشباه والنظائر: ط. 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1984.
- الشيرازي، أبو عبد الله نصر بن علي بن محمد(565هـ): الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها، تحقيق عمر حمدان الكبيسي، رسالة دكتوراه كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1408هـ.
- الصحاري، سلمة بن مسلم العوتبي (ت. 511هـ): الإبانة في اللغة العربية، تحقيق عبد الكريم خليفة/ نصرت عبد الرحمن/ صلاح جرار/ محمد حسن عواد/ جاسر أبو صفية، ط. 1، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1999.
- الطبري، محمد بن جرير (ت. 310هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود محمد شاكر، د. ط. دار المعارف، مصر، د. ت.
- ابن الطحان السماتي(ت. 561هـ):مرشد القارئ إلى تحقيق معالم المقارئ، تحقيق حاتم صالح الضامن، ط1، مكتبة الصحابة، الشارقة، 2007م.
- الفراء، أبو زكرياء يحيى بن زياد (ت. 207هـ): معاني القرآن؛ تحقيق محمد علي النجار، د. ط، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب، 1980.
- الفرغاني، علي بن مسعود(ت. 579هـ): المستوفى في النحو، تحقيق محمد بدوي المفتون، د. ط. دار الثقافة العربية، 1987.
- القرالة، زيد خليل: الحركات في اللغة العربية: دراسة في التشكيل الصوتي، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2004م.
- القرطبي، عبد الوهاب بن محمد (ت. 461هـ): الموضح في التجويد، تحقيق غانم قدوري، ط 1، دار عمار، الأردن، 2000 .
- القيسي، مكي بن أبي طالب(ت.437هـ) :الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها وتفسير معانيها وتعليلها وبيان الحركات التي تلزمها، تحقيق أحمد حسن فرحات، د.ط، دار عمار، عمان، الأردن، 1996م.
- ابن منظور أبو الفضل (ت. 711هـ): لسان العرب، ط. 3، دار صادر – بيروت، 1414 هـ.
- المهداوي، أبو العباس أحمد بن عمار(440هـ): شرح الهداية، تحقيق حازم سعيد حيدر، مكتبة الرشد، الرياض، د.ت.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

- النويري، أبو القاسم محمد بن محمد(857هـ): شرح طيبة النشر في القراءات العشر، تحقيق مجدي محمد سرور باسلوم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
- ابن يعيش (ت. 643هـ): شرح الملوكي في التصريف، تحقيق فخر الدين قباوة، ط. 2، دار الأوزعي، 1988.

المراجع باللغات الأجنبية:

- Cantineau, J. (1960). Etudes de la linguistique Arabe, Klincksieck, Paris.
- Danielle Laroche-Bouvy, (1984), Les pauses et les silences dans l'intéraction verbal**.**
- Fleisch, H. (1990). Traité de philologie Arabe. Vol. 1. Dar El-Machreq, Beyrouth, Liban.
- Gick, B. Wilson, I. & Derrick, D. (2013). Articulatory Phonetics. Wiley-Blackwell: A John wiley & sons, Ltd., Publication.
- Jones, D. (2009). The Phoneme, its Nature and Use. Cambridge University Press.
- Ladefoged, P. & Johnson, K. (2011). A course in Phonetics. Sixth Edition. Wadsworth, Cengage Learning. Boston, USA.
- Ladefoged, P. (1996). Elements of Acoustic Phonetics. Second Edition. The University of Chicago Press. Chicago, USA.
- Troubetzkoy, N. S (1976), Principes de phonologie.
- Vaissiére, J. La structure acoustique de la phrase française, centre d’etudes des télécommunications (CENT), France.
- Wilson, I. & Derrick, D. (2013). Articulatory Phonetics, Edited by Bryan Gick, Malden, MA: Wiley Blackwell.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022